مصاب مصر والشام

برجال العلم وحملة الاقلام

اكبر مصائب البلاد موت العلماء والادباء والكتاب الذين يغذون العقول ويزكون النفوس بالتعليم والتصنيف ونشر العلوم والآداب . وقد رزئت الديار المصرية والسورية في هذه الأيام بوفاة اربعة كهول من اشهر رجالهما في علوم الدين والدنيا واللغة ، يعدون من عوامل التحول والانقلاب الاجتماعي في الامة العربية . وهم احمد فتحي باشا زغلول المصري والشيخ حسن المدور والشيخ محي الدين الخياط البيروتيان — والشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي

١ — احمد فتحي باشا زغلول

في آخر يوم من الشهر الماضي شيعت مصر جنازة نابغة العرب فيها صديقنا احمد فتحي باشا زغلول ، وشعر كل ذي بصيرة فيها بأنها فقدت رجلا لا خلف له في مواهبه ومزاياه

ولد الفقيد لليلتين او ثلاث خلت من شهر رمضان ١٢٧٩ (الموافق اول شهر الشتاء الثاني سنة ١٢٤١ هجرية شمسية — ٢٢ فبراير ١٨٦٣ م) والده من بيت كريم ينتمي الى بعض قبائل العرب التي استوطنت القطر المصري ، ووالدته من بيت كريم يسمى بيت بركات وهما من قرية من قرى مديرية الغربية اسمها (إبيان) وكان والده سماه (فتح الله صبري) ثم غير اسمه ناظر المعارف فسماه باسمه (احمد) لما ظهر له من نجابته ، ولقبه بفتحي للاشارة الى اسمه الأول . وتلقى التعليم الابتدائي والوسط في مدارس الحكومة بمصر والاسكندرية ، واختار له ناظر المعارف ان يتلقى التعليم العالي في فرنسة ، فكان في مدارس التعليم كلها آية الذكاء والاجتهاد . ولما عاد من اوربة دخل في خدمة الحكومة في النيابة والقضاء حتى صار رئيسا لمحكمة مصر الاهلية ثم وكيلا لنظارة الحقانية ، ونال ما نال من رتب الحكومة واوسمتها العالية ، وكان العارفون يجزمون بأن ترقيه دون استحقاقه واستعداده . فهل هذا هو احمد فتحي باشا زغلول ؟

تعلم في مدارس مصر واوربة ألوفا ، عاش اكثرهم ومات كما يعيش ويموت الملايين من الجهلة والمغمولين ، وتقلب كثيرون منهم في مناصب الحكومة واعمالها . وما كل واحد منهم يستحق ان يترجم في الصحف ويخلد اسمه في دواوين التاريخ ، اللهم الا تواريخ المنافقين الذين يعظمون كل صاحب منصب او ثروة وان لم يكن

له أثر يذكر ، او منقبة تؤثر ، الا جمع المال واقتناء العقار ، والتعالي على الناس ولو بالظلم والافساد .

احمد فتحي زغلول ذلك الرجل الذي شهد له كل ذي علم وفهم في مصر بانه بذ الاقران ، وكان المجلي من حلبة المدنية في كل ميدان ، لم يجمع مالا ، ولم يتأثل عقارا ، ولم يترك درهما ولا دينارا ، وانما كان هو ذلك الرجل بما آتاه الله من الذكاء واللوذعية ، والعقل والروية ، والهمة العلية ، وما تربى عليه من ملكة الاستقلال ، وما اكتسبه من العلوم وما احسنه من الاعمال .

خلق احمد فتحي زغلول كبير الاستعداد ، آتاه الله فؤاداً ذكيا ، وذهنا لوذعيا ، والأذكياء في أمتنا العربية كثيرون ، فان كان حظ هذا الرجل من الذكاء عظيما فكم من عظيم الذكاء اطفأت التربية السوءى والبيئة الفاسدة نور ذكائه ، وهدمت ما بنته الفطرة من قوة استعداده ؟ وكم من ذكي وجهت القدوة السوءى ذكاءه الى ما يضره او يضر أمته كلها ، وقد اتفق لهذا الذكي اللوذعي ان نبت في بيئة خاصة ، مثل فيها امام عينيه من اول العهد بالتمييز إمام الاصلاح في هذا الزمان ، ومن حوله من المريدين والاخوان ، الذين لم يكن لهم سمر ولا حوار ، الا في شؤون التربية والاصلاح ، فكان يرى منذ عهد التعليم الابتدائي الاستاذ الامام متجليا في فضائله وحكمته ، والشيخ عبد الكريم سلمان متحليا بآدابه وفضله ، واخاه (سعدا) معتصما باستقلاله وحجته ، مع أتراب لهم من مريدي السيد جمال الدين حكيم الاسلام ، وخليفته الاستاذ الامام ، وكل في فلك العلم والحكمة يسبحون ، وحول قطب الاصلاح وتجديد حياة الأمة يدورون ، فاقتبس استعداد احمد فتحي بفكرة العمل والسعي لتجديد حياة الامة ، وحبب الاستاذ الامام بعد عودته من أوربة ودخوله في اعمال الحكومة كاخيه الاكبر (سعد باشا) محبة المريد الصادق ، للمرشد الكامل ، فاستفاد من تلك الافكار السامية ، والمقاصد العالية ، والفصاحة الخلابة ، والبلاغة الجذابة ، ما شاء الله ان يستفيد . وكان زيته صافيا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فاتصل بذلك القبس المتألق فاشتعل نورا على نور .

أروي عن فقيدنا النابغة كلمتين في أستاذنا الامام رحمهما الله تعالى . الاولى سمعتها منه في أول مجلس لقيته فيه : زار الفقيد طرابلس الشام بصحبة الاستاذ ايام كنت اطلب العلم فيها ، فكنت مدة مكثهما في طرابلس ملازما لهما من الصباح الى وقت النوم ، لانني كنت اطلعت على ما صدر من جريدة (العروة الوثقى)

فعشقت السيد جمال الدين مدبر سياستها، والشيخ محمد عبده رئيس تحريرها، وصرت مريدا لهما بالغيب. وقد جئت الدار التي ناما فيها ليلة قدما فقيل لي انهما ذهبا الى حمام عز الدين ، جئت الحمام فألفيت بعض العلماء والوجهاء قعودا في خارج الحمام ينتظرون مع الفقيد ، والاستاذ في الداخل ، فترجمني الشيخ خير الدين الميقاتي من علماء طرابلس للفقيد، وكان مما قاله: انه اكتب الكتاب عندنا وهو لا يرى لنفسه استاذا في الكتابة الا الاستاذ الشيخ محمد عبده على انه لم يره . فقال الفقيد كلنا ليس لنا استاذ في الكتابة غير الاستاذ . واحسب انه فسر ذلك بان التمايز في الكتابة انما هو بالافكار واساليب التصرف في الكلام، وأن كل من يقرأ ما كتبه الشيخ او يسمع كلامه يجد فيه القدوة المثلى والمادة الغزيرة في ذلك . ولم احفظ من كلامه بنصه وقتئذ الا تلك الكلمة

واما الكلمة الثانية فقد قالها منذ ثلاث سنين اذ كنا نتذاكر في داره ببعض المسائل الاجتماعية، فذكرنا كلمة من حكم الاستاذ في ذلك فسرتها الحوادث فقال : ان كثيرا من كلام الشيخ لم يظهر لنا معناه المراد الا بعد موته . وقد كان يقول الكلمة فنظن اننا فهمناها ثم يظهر لنا بعد عدة سنين اننا لم نكن فهمنا بعد غوره فيها ، حتى كشفه طول البحث وسعة الاختبار . اه بالمعنى

تلك البيئة الاصلاحية هي التي جعلت من استعداد احمد فتحي زغلول خطيبا مفوها، كما جعلته كاتبا قديرا ، فكان في مصر ثاني الاستاذ الامام في فصاحة لسانه، والتزام الفصيح في اكثر كلامه ، اما الاستاذ فقد كتب الشيخ ابراهيم اليازجي في ترجمته، ـ وناهيك بنقده ودقته ـ ان كلامه الذي كان يلقيه في مجالسه العادية كابلغ ما يكتبه المترسلون المتأنقون . أقول : وناهيك به قدوة صالحة ، ومربيا للملكة .

تلك البيئة الطيبة والقدوة الصالحة هي التي لقحت ذلك الذهن الوقاد بلقاح الاستقلال ، الذي به تظهر ثمرات العلوم عند القيام بالاعمال ، فكان مضطلعا بالعمل بما تعلم ، وكان علمه ملكة ثابتة ، وصفة راسخة ، وشجرة مثمرة ، واكثر المتعلمين منا مقلدون ، يودعون العلم بوداع المدرسة ، وما عرفنا رجلا مثله كانت الحكومة تشعر بحاجتها الى علمه ، وترجع اليه حتى في القوانين والاعمال التي لا تتعلق بعمله ، فهو واضع اللائحة الاصلاحية للمحاكم الشرعية ، وهو واضع قانون إصلاح الازهر ، وناهيك بهما ، وبما يتوقف عليه وضعهما ، وقد اشتهر أنه كان في نظارة الحقانية الركن الركين ، لوضع جميع الانظمة واللوائح والقوانين .

لم تشغل الفقيد خدمة الحكومة التي كان يتقنها من كل وجه ، عن خدمة الامة بالعلم والعمل ، فقد كان عضوا عاملا في الجمعية الخيرية الاسلامية ، وألف

وترجم عدة كتب يبتغي بها الاصلاح والنهوض بالامة ، دون الكسب والثروة ، وكان اول ما اخرجه للغة العربية من نفائس مصنفات الافرنج (كتاب أصول الشرائع) لبنتام ، وهو كتاب جليل في فلسفة القوانين وعللها ومداركها ، يعجز عن ترجمته من لم يكن راسخا في علوم القوانين والفلسفة ، وسعة الاطلاع في علم اللغة ، ولو كان العلم في الامة حيا لاعيد طبع هذا الكتاب مرارا .

وكان آخر كتاب ألفه في القضاء (شرح القانون المدني المصري) شرحه شرح العالم المجتهد المستقل ، وتصرف في تنسيقه وترتيبه تصرف المصلح المنقح ، وغير في هذه الترجمة كثيرا من الاصطلاحات القضائية المترجمة عن اللغة الفرنسية ترجمة غير صحيحة ، فأعجبت الحكومة وجمهور رجال القضاء بهذا الشرح ، واعترفوا بشدة الحاجة اليه ، وكان هو الباعث على احتفالهم بالشارح ذلك الاحتفال الذي نوهنا به في وقته

وله في هذه المباحث القضائية كتاب حافل سماه (المحاماة) وقد بين في هذا الكتاب تاريخ المحاماة عند الامم القديمة بالاجمال وعند الامم الغربية بالتفصيل ومنه الكلام في نظامها عند هذه الامم ، والمؤتمر الذي عقد لها ، ثم افاض القول في المحاماة في مصر ، وبيان حال المحاكم المصرية وتاريخها وتأسيس الحكومة المصرية ودخولها في سلك النظام الاوربي ، وأطال الكلام على القضاء فيها ، وبعد استيفاء كل ما أراده من الكلام على المحاماة وأهلها من التاريخ والنظام والقوانين والآداب وما يناسب ذلك ختم الكتاب بملحقات في قوانين مصرية سابقة ولوائح وأوامر رسمية مصرية متممة للموضوع . فكانت صفحات الكتاب ٤٣٤ وصفحات الذيل ٢١٠ وله رسالة قضائية في التزوير مفيدة في بابها

وله ترجمة كتاب (الاسلام - خواطر وسوانح) للكونت هنري دي كاستري الفرنسي ، في رد مفتريات الصليبيين وأشباههم على الاسلام ، فقد كان هذا الكونت واسع الاطلاع في كتب المسلمين ، ونقل في هذا الكتاب من مطاعن الافرنج في الاسلام مالم يخطر على بال مسلم في الدنيا ، وردها واثنى على الاسلام خير الثناء . وقد ترجم هذا الكتاب وطبعه في اواخر سنة ١٣٠٥ وهي التي صدر فيها المنار ، وقرظناه في العدد الحادي عشر من السنة الاولى ، ونشرنا مقدمته للترجمة العربية التي نقل الفقيد فيها نبذة من المنار . وكان غرضه من ترجمة هذا الكتاب الدفاع عن الاسلام وبيان محاسنه وتنبيه المسلمين الى ذلك

وأما الكتب التي ترجمها لغرض التجدد العلمي والمدني في مصر وسائر الامة

العربية فهي كتاب (سر تقدم الانكليز السكسونيين) في الطريقة المثلى للتربية والتعليم، لعالم فرنسي اسمه (أدمون ديمولان) وكتاب (روح الاجتماع) وكتاب (تطور الامم) كلاهما للفيلسوف الفرنسي الكبير (غوستاف لوبون) فكان غرضه من هذه الكتب بث فكرة التربية الاستقلالية والتعليم العملي في الامة، واعتماد الافراد على أنفسهم لا على حكوماتهم(١) وتنبيهها الى اسباب التحول والانقلاب في الامم والشعوب، وكونه لا يحصل الا بالتدريج البطيء، وتذكيرها بالآفات والعلل الكامنة في التطورات الاجتماعية الحديثة في الافرنج، كالاشتراكية والاحزاب والجمعيات السياسية والاقتصادية وغيرها. ولغوستاف لوبون مذهب خاص في هذه المباحث يخالفه في كثير من آرائه بعض علمائهم. والناظر المستقل لا يقلد أحدا من المختلفين، وانما يمحص المسائل ويتبع قوة الحجة والدليل

ويقال انه كان بدأ بترجمة كتاب مدنية العرب أو حضارة العرب لغوستاف لوبون أيضا، وكان الاستاذ الامام حضه على ترجمته. وآخر ما أخرجه قلمه للناس ترجمة رسالة سياسية في سوء حال الدولة العثمانية وشدة حاجتها الى تغيير وضعها ونظامها، وهي للامير مصطفى فاضل باشا زعيم الاحرار الاول في الآستانة خاطب بها السلطان عبد العزيز، ورسالة أخرى في قواعد وفذلكات اجتماعية لغوستاف لوبون جعلها كالمذكرات والمناوين لما فصله في كتبه الاجتماعية. فترجمها الفقيد بالعربية وسماها (جوامع الكلم)

وقصارى القول في صفة الرجل الاجتماعية والسياسية انه حجة على كفاءة العربي وقدرته على العلم والعمل بالنظام الاوربي كأرقى الاوربيين، لانه ركن في العمل بذلك.

وأما صفاته الشخصية فقد كان حسن المعاشرة، حلو المفاكهة، نزيه النفس واللسان، يقدر على إرضاء كل جليس بغير دهان، لا يمل جليسه جده، ولا يعبث بوقاره هزله، وقلما تربى في اوربة شاب مثله في عفته وصيانته، والاعتصام من استخفاف حرية الفسق لشرة الصبا وخفته. وكان دقيق النظام في كل شيء متأنقا جد التأنق في زيه ومعيشته بلا تكلف، ولا اضاعة وقت في العبث. وأما رأيه في الاصلاح والتجدد فهو أن يبني ولا يهدم، لان الامة اذا وجدت البناء الجديد اصلح لها، تركت المباني السيئة تسقط

(١) كتبت في منار اول المحرم سنة ١٣١٧ مقالة عنوانها (الاعتماد على النفس) فقال لي وقتئذ: اني استعملت هذه الكلمة في ترجمة كتاب (سر تقدم الانكليز) الذي يطبع الآن وارالك سبقتني الى استعمالها، ثم كثر استعمال هذه الكلمة بانتشار ذلك الكتاب لا بمقالتي

من تلقاء نفسها ، فلم يكن يدعو الى ترك العادات الضارة ويشنع على أنصارها ، لذلك لم يطعن الناس في رأيه ومذهبه كما طعنوا في صديقه قاسم بك امين، بل لم يكن الجمهور يعرفون ان له رأيا يرمي اليه في الانقلاب الاجتماعي. فان فهم بعض اذكياء الحزب الوطني ان ما شرحه كتاب روح الاجتماع من امر اندفاع الجماعات بغير عقل ولا شعور ينطبق على حزبهم ، فهل كان يسهل عليهم ان يطبعوا بوطنية مترجم الكتاب ويعدونه خصما لهم ؟

هذا وان الفقيد قد كان ميالا الى الاصلاح الديني ، معتقدا انه شطر أو شرط للاصلاح المدني والسياسي ، وقد كان أخبرني في أوائل العهد بانشاء المنار ان ابراهيم باشا فؤاد ناظر الحقانية مغتبط بالمنار ويرى وجوب تعميم نشره بين المسلمين . وأنه هو قد سر بذلك وتواعد مع الناظر باتخاذ وسيلة لذلك يوزع بها ألوف من النسخ على طلاب العلم وفقراء القراء بثمن قليل . ثم لم أراجعه ولا كلت ابراهيم باشا في ذلك عندما كنت ألقاه وأسمع منه الثناء على المنار . ولا هما وفقا لشيء مما تحدثا به .

ولما توفي شيخنا الاستاذ الامام تذكر أصدقاؤه ومريدوه في عمل شيء يذكر به ، فاقترحت ان تنشأ باسمه مدرسة كلية يجمع بها بين التربية الدينية الصحيحة وتعليم العلوم الدينية والدنيوية على طريقته التي كان يسعى لها سعيها باصلاح الازهر ، فقبلوا الاقتراح بكل ارتياح ، وانتخبوا في دار سعد باشا زغلول لجنة لوضع نظام المدرسة مؤلفة من حسن باشا عاصم والفقيد وصاحب هذه المجلة ، فكان الفقيد مهتما بهذا ، وذاكر به لورد كرومر ـ كما تقتضي المصلحة ـ فاظهر اللورد له الاستحسان . ووعده بأن يحضر له نظام وبرنامج مدرسة عليكرة الاسلامية الهندية للاقتباس منه واستحسن ان يبدأ بالعمل صغيرا ليكبر بالتدريج . ويعلم الذين يقرؤن المنار منذ سنين ان الذي حال دون إنشاء هذه المدرسة هو ظهور مشروع مدرسة الجامعة المصرية ونوط أمرها بسعد باشا زغلول وقاسم بك أمين . وكان سعد باشا هو الركن الركين لمشروعنا فتركه للجامعة وما كان يمكن ان يشتغل به وبمشروع الجامعة معا

ولما عزمت على السفر الى الاستانة منذ أربع سنين لاجل مشروع الدعوة والارشاد اهتم بذلك الفقيد اهتماما عظيما ، وجاءني ليلة من ليالي رمضان الذي سافرت فيه واقترح ان نتكلم في المشروع منفردين ، فاقفلنا باب الدار ، وظللنا نتحدث في المشروع الى مابعد نصف الليل ، فلما شرحت له وسائله ومقاصده سرّ به وبالغ في استحسانه ، ووعد بأن يساعد الجمعية التي تؤسس له هناك بقدر الطاقة وعهد اليّ

بأن أتعاهده بالكتابة من الآستانة ، فكانت الكتابة بيننا متصلة في ذلك ، ولم أر أحداً من أصدقائي بمصر اهتم بذلك بعض اهتمامه رحمه الله تعالى

كان سبب موته مرض ألمّ بدماغه ، سببه كثرة تفكيره واشتغاله ، ولا غرو فقد كانت قوة ذلك الدماغ أعظم من مادته ، وعمله فوق استطاعته ، وذلك منتهى أكثر الرجال الذين همتهم اكبر من قوتهم ، تنسى عقولهم حقوق ابدانهم : فيجنون على امتهم بجنايتهم على انفسهم ، اذ ينتزعهم القدر منها ، أقدر ما كانوا على خدمتها ، فمنهم من يقضي في سن الشباب ، ومنهم من يلقى مصرعه عند الاكتهال ، وبلوغ قواه كلها مستوى الكمال ، كمن فقدنا اليوم ، ومن فقدنا بالامس ، رحمهم الله تعالى .

محاربة متعصبي القبط وغيرهم للمنار

في يوم السبت في ٢١ جمادى الاخرة دعانا بالمسرة (التلفون) رئيس النظار حسين رشدي باشا الى داره فوافيناه فيها فاذا هو في سرير النوم لانحراف صحته ، واذا بجانبه جريدة مصر القبطية ، فأطلعنا عليها ، وسألنا عما تنسبه الى المنار من الطعن المعلم عليه بالحبر الأحمر فيها ، وملخصه أنه يجعل النصارى كلهم وثنيين وان طعنه يكاد يضرم نار الثورة في البلاد ؟؟ فلما قرأت ما فيها قلت للرئيس : ياعطوفة الرئيس ! انت قاض قبل كل شيء ، وقد اشتهرت في حياتك القضائية بالاستقلال ، ومن مقتضى ذلك ان تقرأ الطعن الذي تشير اليه جريدة مصر ، قبل ان تحكم في المسألة بشيء . هذه العبارة التي تشير اليها جريدة مصر اوردها المنار كعنوان لموضوع كتاب في سياق تقريظه له . هذا الكتاب اسمه « نشوء فكرة الله » مؤلفه انكليزي ، وخلصه بالعربية سلامه افندي موسى القبطي ، وطبعه بمطبعة يوسف افندي الخازن الماروني السوري ، محرر جريدة الوطن القبطية ، وقرظته الجرائد والمجلات السورية والقبطية والاسلامية ، ولم يعب المترجم والناشر احد منها بانه عاب النصرانية وكاد يضرم نار الثورة في البلاد ! ولكن لما قرظته مجلة المنار الاسلامية وذكرت ان ملخصه اثبات كون الديانة النصرانية وثنية الاصل — وقيدتها بالحاضرة تبرئة للمسيحية الصحيحة التي كان عليها المسيح عليه السلام وحواريه رضي الله عنهم — صار ذلك اكبر الجرائم المحركة للثورات والفتن ، واستحق صاحب المنار النفي من مصر ، واستحقت الحكومة هذا الانذار من جريدة مصر — اذ فيها : ان من انذر فقد اعذر — بعد الاقتراح على الحكومة ان بان تعاقب صاحب المنار بمثل ما عاقبت به عبد العزيز شاويش عدو القبط من سجن ونفي .

ثم اعطيت للرئيس نسخة المنار فلما قرأ التقريظ فيها ضحك مستغربا كتابة